فنّ مناظرة ا لملحدين

د. محمّد أكديد*

الخلاصة

يبلغ عدد المُلحِدين حسب آخر الإحصائيّات حوالي 850 مليونًا(**)، ويشمل هٰذا العدد كلًّا من المنكرين لوجود الله، وغير المؤمنين بالدين، واللاأدريّين، وتبلغ نسبتهم بالقياس إلى مجموع سكان العالم تقريبًا 14 %. وبالرغم من أنّ هٰذا العدد يبدو صغيرًا نسبيًّا بالمقارنة مع عدد المتديّنين فقد بات الإلحاد خلال الفترة الأخيرة يشكّل تحدّيًا كبيرًا داخل معظم الدول والمجتمعات خاصّةً المتديّنة منها، وأخصّ هنا بالذكر المجتمعات الإسلاميّة، الّتي اكتوت بتنامي موجات التطرّف، وتصاعد العنف الّذي كرّسته الجماعات المرتبطة بالتيّارات الدينيّة المتطرّفة، الّتي تحاول تنزيل رؤيتها الشوفينيّة على أرض الواقع، الشيء الّذي انعكس سلبًا على مواقف الكثير من العوامّ وقناعاتهم السطحيّة في ظلّ تفشّي الأمّيّة، وانحسار دور الفقهاء والعلماء في عددٍ من الدول الإسلاميّة، إضافةً إلى عوامل أخرى ذاتيّةٍ وموضوعيّةٍ لا يتّسع المجال لتفصيلها في هٰذا البحث الّذي سنركّز فيه على مناهج مناظرة المُلحِدين وآدابها ـ خاصّةً منهم منكري الوجود الإلٰهيّ (مع الإشارة إلى أصنافٍ أخرى من المُلحِدين عند تعريف الإلحاد) - وكذا على أهمّ الشروط والأخلاقيّات الّتي يتعيّن على المناظر التقيّد بها، والمسائل الّتي يتوجّب عليه تجنّبها لإنجاح المناظرة، كما سنعمل على طرح بعض أهمّ شبهاتهم ومناقشتها باختصارٍ.

(*) محمد أكديد، المغرب، باحثٌ و متخصّصٌ في علم الاجتماع السياسّي.

mohamed.akdid@gmail.com

(**) انظر الرابط : http://:atheistempire.com/reference/stats/index.php

الكلمات المفتاحيّة: المناظرة؛ الإلحاد ؛ آداب الحوار؛ الوعي الذاتيّ؛ التراث الديني؛ المنهج العقليّ.

The art of debating atheists

Abstract:

Atheism in the recent period has become a major challenge in most countries and societies, especially in religious societies, and in particular Muslim societies that have been subjected to the growing waves of extremism, and increasing violence enshrined by groups related to extremist religious movements. The groups trying to put their chauvinistic vision in practice, adversely affecting on the attitudes of masses and their superficial convictions in midst of prevailing ignorance and decline in the role of jurists and scholars in some of the Muslim countries. This, in addition to other essential and objective factors that cannot be covered in this study that concentrates only on the manners and methods of debating atheists, including those who deny the divine existence and others. Similarly, the conditions and ethics compulsory for debater, and matters to be avoided in a debate would be discussed. We will also address some significant suspicious inquiries in this regard.

Keywords: debate, atheism, manners of dialogue, self-awareness, religious heritage, rational method.

المقدّمة

في خضمّ الصراع الطائفيّ الّذي أنهك المسلمين في الماضي والحاضر، يتقدّم الإلحاد بخطًى ثابتةٍ لاستقطاب المزيد من الأتباع في بلاد المسلمين، مستغلًّا ضياع الشباب المسلم بين عددٍ من القراءات والأطروحات التقليديّة الجامدة للإسلام، والّتي يطغى عليها الخرافة والغلوّ في الكثير من الأحيان، في ظلّ غياب التحقيق الرصين، والموضوعيّة اللازمة للتعاطي مع الكثير من الأحداث والمفاهيم والحقائق الّتي تمّ التلاعب بمضمونها حسب أهواء الساسة، وفقهاء الحشويّة والمنافقين خلال العصور الأولى الّتي أعقبت وفاة الرسول ﷺ، إذ يتلاعب آباء الإلحاد بعددٍ من النصوص والتفاسير المنحرّفة؛ لتبيان بطلان الرسالة المحمّديّة، وادّعاء فرية القرآن والحديث، من خلال عددٍ من الشبهات الّتي يبرعون في إثارتها، والّتي تستقطب عادةً الشباب الغِرّ ممّن ليس لهم باعٌ في التحقيق، أو حتّى درايةٌ كافيةٌ بعلم القرآن والحديث، والسياقات التاريخيّة المختلفة الّتي مرّ بها المسلمون، وما تخلّل ذٰلك من مخالفاتٍ واجتهاداتٍ منحرفةٍ عن المنهج الّذي تركهم عليه الرسول ﷺ.

لقد عرف المسلمون الإلحاد مبكّرًا خلال العصور الذهبيّة للحضارة الإسلاميّة؛ وذٰلك من خلال بعض الحالات الفرديّة الّتي كانت بين الفترة والأخرى تتمرّد على عقائد المسلمين، لٰكنّه اليوم يعود كظاهرةٍ ارتبطت بالعديد من التحوّلات الّتي عرفتها الفترة الحديثة والمعاصرة، حيث ستتطوّر الأطروحات الإلحاديّة في تفكير الغرب الحديث، عِبْرَ مراحلَ خصوصًا بعد الثورة الفكريّة والعلميّة الّتي عرفتها خلال عصر الأنوار. إذ سعى الأفراد بعد استعادة ذواتهم وعقولهم من هيمنة الكنيسة، إلى رفض كلّ ما له علاقة بالمقدّس، في مقابل الإقبال على واقعٍ دنيويٍّ جديدٍ، خاصّةً بعد التحوّلات السياسيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة الكبرى الّتي عرفتها أوربّا خلال تلك الفترة، بالتمسّك بعالم الموجودات الحسّيّة، مبتعدين عن كلّ ما له علاقةٌ باليقينيّات القلبيّة والتمثّلات الّتي جاءت بها الأديان حول الخالق.

لقد كان لهٰذه الصيرورة انعكاســاتٌ عميقةٌ على المجتمعات الإســلاميّة، الّتي تأثّرت بدورها بتداعيات الإلحاد الغربيّ، خاصّةً في ظلّ تصاعد موجات التطرّف والإرهــاب المرتبط بالدين خصوصًا بعد ظهور داعش، والجماعات التكفيريّة خلال المرحلة الراهنة، والّتي أصبحت تهدِّد اســتقرار عددٍ من الأوطان بأجنداتها التخريبيّة، إلى عزوف الكثير من الشــباب المســلم عن نمطٍ منغلقٍ من التديّن، ارتبط أساسًــا بتغوّل الأيديولوجيا السلفيّة الوهابيّة لعقودٍ شــهدت على تخلّف المسلمين، وانحســارهم عن مواكبة مستجدّات الحضارة الإنسانيّة، بفقهيّاتٍ ومواقف تعود إلى القرون الوسطى.

وهٰكذا كان، فلا بدّ من التوقّف في هٰذه الدراسة على ظاهرة الإلحاد؛ بتعريفه أوّلًا، ومناقشة أهمّ الأسباب والدوافع الكامنة وراء تنامي هٰذه الظاهرة، خاصّةً في المجتمعات العربيّة والإســلاميّة، مع الإشارة إلى توظيف مناهج البحث في هٰذه الظاهرة؛ لمواجهة أطروحات المُلحِدين، وسنستعرض باقتضابٍ في هٰذا الإطار كلًّا من المنهج الفلسفيّ العقليّ، والمنهج الحسّيّ التجريبيّ بالإضافة إلى المنهج القرآنيّ؛ لنختم بحثنا بمجموعةٍ مــن النتائج والخلاصات حول ظاهرة الإلحاد وسبل مواجهة تداعياتها، خاصّةً في العالم الإسلاميّ.

تعاريف

1 ـ الإلحاد

الإلحاد لغةً هو الميل عن القصد، مأخوذٌ من اللحد، وهو الشقّ يكون في جانب القبر، ســمّي بذٰلك لأنّه أميل عن وسط القبر إلى جانبه، ومن معاني ألحد: طعن وجادل وجــار، وكلّها لا تخلو من بعض الميل؛ فلا يطعن أحدٌ في شيءٍ، أو يجادل فيه، إلّا إذا مال عنه، أو عمّا يعتقد خصمه أنّه الحقّ، ولَحَدَ في الدين وألحَد مال وعدل.

يقول ابن السكّيت: الملحد العادل عن الحقّ، المدخل فيه ما ليس منه، يُقال قد ألحد في الدين، أي حاد عنه، وألحد الرجل أي ظلم في الحرم، وأصله من قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ﴾ [سورة الحجّ: 25] أيْ إلحادًا بظلمٍ [ابن منظورٍ، لسان العرب، ج 3، ص 388، "لحد" (بتصرّفٍ)].

والإلحاد كما يقول الراغب الأصفهانيّ إلحادٌ إلى الشرك بالله، وإلحادٌ إلى الشرك بالأسباب: فالأوّل: ينافي الإيمان ويبطله، والثاني: يُوهِن عُراه ولا يبطله. ومن هٰذا النحو قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [سورة الحجّ: 25] وقوله: ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [سورة الأعراف: 180]. والإلحاد في أسمائه على وجهين: «أحدهما أن يُوصَف بما لا يصحّ وصفه به، والثاني أن يتأوّل أوصافه على ما لا يليق به» [الراغب الأصفهانيّ، المفردات في غريب القرآن، ص 448].

والإلحاد يُطلق على نوعين:

أحدهما: يتمثّل في إنكار وجود الله تعالى، والقول بأزليّة المادّة وإنّها أصل الكون، ومن ثَمَّ القول بأنّ الكون وُجِد بلا خالق، بل إنّ المادة في زعم أصحاب هٰذه المقولة هي الخالق والمخلوق معًا، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلا يَظُنُّونَ ﴾[سورة الجاثية:24]. والنوع الثاني: يتمثّل في اتّخاذ شركاء مع الله تعالى، أو التكذيب بالرسالات الإلٰهيّة، وإنكار البعث وما فيه من حسابٍ ونعيمٍ وعذابٍ، وهٰذا النوع من الإلحاد لا يلزم القول به الكفر التامّ بموجد الكون. [طعيمة، الإلحاد الدينيّ في مجتمعات المسلمين، ص 10]

وبينهما تأتي طائفةٌ تسـمّى "اللاأدريّة"، وهو مذهب الشـكّ القائل بأنّ معرفة الحقائق في هٰذا العالم لا يمكن الوصول إليها، أو يشكّ في الوصول إليها. وقد ظهر هٰذا المذهب في عصورٍ مختلفةٍ في تاريخ الفلسـفة. فقد رأيناه عند السوفسطائيّين، حيث كان غورغياس (Gorgias) أحد زعماء السوفسطائيّة يقول: إنّنا نشكّ في وجود الأشياء، وإن كانت موجودة فلا سبيل إلى معرفتها. وفي العصور الحديثة كان زعيم الشكّاك ديفيد هيوم (David Hume) قد أبان أنّ وسائل المعرفة الّتي يعتمد عليها العقل البشريّ كالعلّة والمعلول، والسبب والمسبّب، والجوهر والعرض ونحو ذٰلك، ليست إلّا وهمًا وخداعًا، ومن ثمّ لا تمكن المعرفة. [نجيب محمود، قصّة الفلسفة، ص 187].

ولسان حال الإنسان اللاأدريّ: لا أدري هل الإلٰه موجودٌ؟ أو غير موجودٍ؟ لا أدري، هل هناك عالمٌ آخر؟ هل هناك أرواحٌ؟ هل هناك ثوابٌ وعقابٌ؟ لا أدري.

فالقيمة الحقيقيّة للقضايا الدينيّة أو الغيبيّة عند هٰؤلاء غير محدّدةٍ، وغير ذات معنًى؛ لأنّها من نوع المعنويّات والغيبيّات غير المنظورة، وغير الخاضعة للمقياس العلميّ الحسّيّ المعروف.

وسـنركّز عملنا في هٰذه الدراسة على النوع الأوّل الّذي ينكر وجود الخالق جملةً وتفصيلًا.

2 ـ المناظرة

يقول الراغـب في (المفردات): «والمناظرة: المباحثـة والمباراة في النظر، واسـتحضار كلّ ما يراه ببصيرته، والنظر: البحث، وهو أعمّ من القياس؛ لأنّ كلّ قياسٍ نظرٌ، وليس كلّ نظرٍ قياسًا» [الراغب الأصفهانيّ، المفردات في غريب القرآن، ص 644].

واصطلاحًـــا، يقول المنـــاويّ في "التوقيـــف على مهمّـــات التعاريف": «هي النظر بالبصيرة من الجانبين في النســـبة بين الشـــيئين إظهارًا للصواب» [المناويّ، التوقيف على مهمّات التعاريف، ص 316]. وقيـــل هي: تردّد الكلام بين شـــخصين يقصد كلٌّ منهما تصحيح قوله، وإبطال قول صاحبه مع رغبة كلٍّ منهما في ظهور الحقّ. [الألمعيّ، مناهج الجدل في القرآن الكريم، ص 30]

ويظهر لنا معنى الترابط بين المعنى اللغويّ والمعنى الاصطلاحيّ للمناظرة في كـــون المناظرة يحصل فيها التدبّر والتفكّر والبحـــث، كما أنّ فيها معنى التقابـــل بين المتناظرَين وبين أدلّتهما وقوليهما على شـــكل حوارٍ حول قضيّةٍ مطروحـــةٍ للنقاش، وفيها معنى الانتظار؛ لكـــون كلٍّ من المتناظرَين ينتظر صاحبه حتّى يتمّ كلامه، ثمّ يجيب عنه ويناظره فيه، كما أنّ فيها معنى النظر الحِسّيّ؛ فكلٌّ من المتناظرَين غالبًا ينظر في مناظره؛ ليسمع كلامه ويستوعب قوله وحجّته .

وتقوم المناظرة على أســـاس وجود طـــرفٍ مؤيِّدٍ للقضيّـــة، وطرفٍ آخر معارِضٍ، أو لديه رأيٌ مخالفٌ في أحد النقاط المطروحة ضمن إطار القضيّة، حيـــث يقوم كلّ طرفٍ بمحاولة إثبات صحّة رأيه، والدفاع عنه باســـتخدام الحجج والبراهين العلميّة؛ لإقنـــاع الجماهير برأيه وحججه، كما يحاول كلّ طـــرفٍ إثبات خطإ موقـــف الطرف الآخر ورأيه؛ وذٰلك مـــن أجل الفوز في المناظرة. وتُدار المناظرة ضمن قواعد وضوابط وشروطٍ معيّنةٍ تختلف حسب المكان المستضيف للمناظرة، وحسب نوع القضيّة المطروحة. [سلامي، المدخل إلى فنّ المناظرة، ص 43 و44 (بتصرّفٍ)]

ولا بـــدّ للمناظرة من موضـــوعٍ، ولا بدّ لها من متناظرَيـــن، وهما ركنا

المناظرة، كما لا بدّ لها من شروطٍ تكمّـل هٰذه الأركان وتوضّحها. ومن بين أهمّ هٰـذه الشروط: علم المتناظرين بموضوع التناظـر، والتزامهما بقوانين المناظـرة وأخلاقها، وكذا احترام عرف المناظرة؛ فإذا كان الكلام على عرف الفقهاء (مثلًا)، فلا يلجأ الطرف الثاني إلى عرف النحاة أو الفلاسـفة ونحو ذٰلك. [جريشة، آداب الحوار والمناظرة، ص 65 و66]

وتنبثق أهمّيّة المناظرة بكونها تفتح السـبل للوقوف على الثغرات الّتي قد تعتري أطروحة أحد المتناظرَين من ثغراتٍ، ويسـاهم في تطوير سبل الدفاع عن الأطروحة المُثلى.

ومن بين أبرز وجوه المناظرة في العالم الإسلاميّ نذكر الشيخ أحمد ديدات الّذي سطع نجمه بعد إفحامه للقسّ جيمي سواجارات أمام أنصاره في شيكاغو بالولايات المتّحدة الأمريكية سـنة 2000، في مناظـرةٍ بعنوان "هل الكتاب المقـدّس كلمة الله". وخلال الفترة الراهنة يمكـن اعتبار الداعية والخطيب الهنديّ ذاكر نايت ـ وهو تلميذٌ لأحمـد ديدات ـ من أهمّ وجوه المناظرة في العصر الحاليّ، خاصّـةً بعد تفوّقه على عالم الأحيـاء والمنصّر ويليام كامبل (William Campbell) ـ الّذي ادّعى وجـود أخطـاءٍ في القرآن الكريم(*)- وذلك في محاضرته المشـهورة "الإنجيل والقـرآن في ضوء العلم"، الّتي أجاب من خلالها ذاكر نايت على العديد من الإشـكالات الّتي طرحها كامبل حول علم الأجنّة ومراحل تطوّر الإنسـان في رحم الأمّ، وبعض الظواهر الفلكيّة الّتي وردت في القرآن، بالإضافة إلى عددٍ من الأحكام الّتي تبناها الإسـلام. [ذاكر نايت، ديدات الأكبر، ص 51 و56]

(*) تعلّم ويليام كامبـل اللغة العربيّة وألّف كتابًا ردّ فيـه على موريس بوكاي (Maurice Bu-caille) الطبيـب والجرّاح الفرنسيّ وعضو الأكاديميّة الطبّيّة العلميّة الفرنسـيّة، ومؤلّف كتاب «الإنجيل والقرآن والعلم» الّذي تُرجِم إلى عدّة لغاتٍ عالميّةٍ.

آداب المناظرة

1 ـ اتّباع الأخلاق الحسنة

أخلاقيًّا، يُستحسَن تفادي الطعن المباشر في شخص المُلحِد، والتعريض به أو مصادرة رأيه مهما كان؛ وذلك احترامًا لآداب الحوار والمناظرة، وامتثالًا لقوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾[سورة النحل: 125].

كما لا بــدّ للمناظر أن يتفادى الغضب الّذي يمكــن أن ينتابه؛ نتيجة استفزاز الخصم مع تجنب إيذاء هٰذا الخصم والسخرية منه، أو إبداء الفحش والكلام البذيء، وأن يتحلّى بالحلم والرويّة والهدوء مع الثقة بالنفس وتقبّل الرأي الآخر من حيث إنّ الاختلاف لا يجب أن يفســد للــودّ قضيّةً. ومن هنا لا بــأس من افتراض صحّة الجانب الآخر أو مجاراته؛ وصولًا إلى تبكيته وإلزامه بالأدلّة. [الشيخليّ، أخلاقيّات الحوار، ص 67 و68]

فالاختلاف في الرأي ظاهرةٍ صحّيّةٍ تعرفها كلُّ المجتمعات (المتحضّرة) إلّا أنّها تنقلب إلى مأساةٍ عندما يتحوّل الاختلاف إلى درجة العداء، والتحزّب الضيّق، والخروج عن مصالح الأمّة. وتبقى المرونة في طرح الأفكار، وحســن الكلام من أهمّ مميّزات المناظر اللبيب.

كما يُستحسَــن تجنّب الحوار العقيــم الّذي لا جدوى منه، والّذي يجري عادةً مع الجهــلاء والمتعصّبين الّذين يرفض تفكيرهــم كلّ جديدٍ ومنطقيٍّ، حيث يحمل المتعصّب جملةً من الأفكار والحقائق يعتبرها مطلقةً، ولا يمكن إلّا التسليم بها بالكامل. [المصدر السابق، ص 24]

ولا بدّ من توفّر بعض المقوّمات لنجاح أيّ حوارٍ، ومنها الإقرار بحقيقتين:

الأولى: رغبة فريقٍ سياسيٍّ أو فكريٍّ بالعيش سلميًّا وطوعيًّا مع الفريق الآخر، دون إلغاء الشخصيّات الأيديولوجيّة للفريق الآخر.

الثانية: اعتراف كلّ فريقٍ بأنّ الآخر يمتلك فكرًا أو عقيدةً من الضرورة احترامها لمبدإ حرّيّة الفكر. [المصدر السابق، ص 16]

كما لا بدّ من التحلّي بالتواضع، وتبنّي حسن الإصغاء؛ للوقوف على المزالق والاختلالات الّتي قد تطال أطروحة الخصم، وتعتور فهمه وخطّته للوصول إلى الحقيقة عوض الاغترار والسقوط بالتالي في مزالق الأنانيّة والتكبّر.

2 ـ الاستعداد العلميّ والفكريّ

قد يكون الملحِد شخصًا ذكيًّا ومثقّفًا يحاول استثمار قدراته الذهنيّة ومعارفه لإثارة الشكوك لدى محاوره، خاصّةً وأنّه عادةً ما يكون متحرّرًا من كلّ القيم والعقائد المرجعيّة الّتي يعتقد بها المسلم؛ لذلك لا بدّ أن تتوفّر في من يريد التصدّي لمواجهته مجموعةٌ من الشروط يمكن إجمالها في الوعي بأسباب الإلحاد، واستيعاب شبهات الملحدين، وفق رؤيةٍ شموليّةٍ تأخذ بعين الاعتبار شخصيّة المناظر، ومستواه الفكريّ.

وكذا الاطّلاع على تفاصيل القضايا العقديّة والفكريّة القديمة والمعاصرة، واستثمار أدوات التحليل الفلسفيّ، ومناهج العلوم الاجتماعيّة، مع الوقوف على مستجدّات النظريّات العلميّة في الفيزياء والفلك وعلمي الأرض والأحياء وغيرها؛ حتّى يتمّ الاستفادة منها في ردّ شبهات الملحدين، بالإضافة إلى محاولة رصد الأفكار الّتي يبثّها هؤلاء في مواقع التواصل الاجتماعيّ والكتب ومعالجتها قبل الدخول في المناظرة.

3 ـ الحذر المنهجيّ

إلى جانب حمـــل المناظر للثقافة الفكريّة والعلميّة الّتي يجب التســـلّح بها لمواجهة شبهات الملحدين، لا بدّ من تبنّي منهجيّةٍ حذرةٍ خلال المناظرة معهم، ويُستَحسَـــن أوّلًا تأســـيس الحوار على أرضيّةٍ مشتركةٍ، مع استعمال الطريقة الحواريّة (الســـقراطيّة) الّتي تعتمد أساسًـــا على استدراج المحاور للوصول إلى الخلاصة الّتي ننوي إقناعه بها؛ وذلك باحترام العقل والمنطق في طرح المسائل والأفكار.

من جهةٍ أخرى لا بدّ للمناظر أن يتوخّى الحذر من المصطلحات؛ فيتجنّب غريب الألفاظ ممّا يســـتعصي عن الفهم، وكذا الأدلّة الّتي يعرضها الخصم، وألّا يتسرّع في نقض أطروحته قبل إفســـاح المجـــال لمحاوره؛ كي يعرض كلّ أدلّته حول الموضوع المطروح للنقاش، أو تأويل كلامه وتحريفه عن المســـار الّذي يقصده صاحبه.

4 ـ معوّقات المناظرة الفاشلة

من بين أبرز الأسباب الّتي قد تؤدّي إلى فشل الحوار وعدم تحقيق أهداف المناظرة التعصّـــب للتمثّلات والأفكار الّتي نحملها عن الأشـــياء عادةً دون تمحيـــصٍ، وعدم الوضوح في طرح الأفـــكار، الّذي قد ينتج أيضًا عن وجود لبسٍ لدى المناظر نفسه.

ومن ذلك الإطناب والاسترســـال في الكلام (الثرثرة)؛ ممّا يفقد المناظر هيبتـــه، ويجعله عرضةً للوقوع في التناقضات والأخطـــاء، أو غياب الأدلّة والبراهين المناسبة لكلّ مسألةٍ. [المصدر السابق، ص 38-43].

من جهةٍ أخرى يتوجّب على المناظر التركيز بموضوعيّةٍ على الفكرة، وتجنّب الرؤية الذاتيّة في معالجة المسائل، أو احتقار الخصم، والأخذ بعين الاعتبار اختلاف السياقات والتمثّلات والأفكار الّتي دفعت كلّ طرفٍ إلى التصديق بما يعتقده والدفاع عنه باستماتةٍ.

وهنا تكمن خطورة التعصّب الشديد الّذي يعدّ من أكبر عوائق التوافق القائمة في عالم الحوار، فالحوار مع متعصّبٍ أعمى لا يحرز أيّ تقدّمٍ، وإذا اضطررت إليه فمن الواجب عليك التحلّي بالصبر ورباطة الجأش، أمّا إذا استمرّ في تعصّبه وفكره المتزمّت فمن الأجدر إنهاء الحوار معه. [المصدر السابق، ص 47].

وختامًا فإنّ الاستعداد الفكريّ، والسموّ الأخلاقيّ للمناظر يلعبان دورًا كبيرًا في استمالة الملحد إلى أفكار خصمه المؤمن، خاصّةً وإنّ طابع العنف قد أصبح يشكّل صفةً لصيقةً بالمتديّنين، تزكّيها ممارسات بعض الجماعات المتطرّفة، بالإضافة إلى صورةٍ نمطيّةٍ أخرى تتمثّل في غياب المنطق لدى المتديّنين؛ نتيجة ارتباطهم بالوحي والغيب.

من شبهات الملحدين

قبل مناقشة الأدلّة العقليّة على وجود الخالق لا بدّ من الوقوف على أهمّ المسائل الّتي يثيرها الملحدون في مواجهة المؤمنين، ممّا يجب أن يستوعبها المناظر، ويستعدّ لها سلفًا؛ حتّى لا يكون لقمةً سائغةً لخصمه. والآن نشير إلى أبرزها باقتضابٍ مع أهمّ الردود الّتي عالجت كلّ شبهةٍ على حدةٍ:

1 ـ الإيمان بالغيب

يرى الملحدون أنّ جوهر العالـــم مادّيٌّ، وأنّ حقيقة الوجود أو العالم هي المادّة؛ فالمادّة هي الأصل الأوّل الّذي يشكّل وجود الكون، وهي منبع المعارف والـــوعي والعقل، وبالتالي فمن العبث الإيمان بمـــا لا تقف عليه الحواسّ، ولا تدركه من الغيبيّات الّتي ذُكِرت في كلّ الكتب الســـماويّة ومنها القرآن. فالعقل لا يمكنه أن يتصوّر إلٰهًا ليس كمثله شيءٌ. وعجزه عن ذٰلك هو الّذي يدفعه إلى إنكار خالقٍ لهٰذا الكون والإنســـان. ومنه يأتي إنكار كلّ ما يتّصل بهٰذا الخالق مـــن مخلوقاتٍ ذكرها كالملائكة والجانّ، وكـــذا صلته بالأنبياء والمرسلين، وحساب الناس في اليوم الآخر بعد بعثهم من جديدٍ.

من جهةٍ أخرى وحســـب قاعدة الســـببيّة فإنّ لكلّ حـــادثٍ مُحدِثًا وعلّةً لظهوره، وهٰكذا فلم يقم هٰذا الكون دون سببٍ. وفي ردّ الأعرابيّ الشهير على مَن ســـأله: كيف عرفتَ الخالق؟ ـ فقـــال: إذا كانت البَعرةُ تدلّ على البعير، والأثر يدلّ على المســـير، فليلٌ داجٍ، ونهارٌ ســـاجٍ، وسماءٌ ذاتُ أبراجٍ، أفلا تـــدلّ على الصانع الخبير؟ ـ لدليلٌ بدهيٌّ على وجـــود الخالق؛ وذٰلك من خلال بديع صنعه ﷻ ممّا تتجلّى آثاره في الكون والطبيعة والإنسان، إذ وضع قوانين دقيقةً لهٰذا الكون ما فتئ الإنسان يكشف عن جوانبها في كلّ حينٍ، خاصّةً بعد تطوّر العلوم التجريبيّة الّتي عملت على حلّ الكثير من الألغاز الّتي كان فهمها يســـتعصي على العقول. وإذا كان الملحدون ـ غالبًا ـ لا ينكرون قانون السببيّة بنحوٍ مطلقٍ، فإنّهم ينكرون السبب الغيبيّ وراء الطبيعة، ويرجعون تصميم النظام إلى أسبابٍ طبيعيّةٍ من داخل العالم.

2 ـ قانون الصدفة

إنّ من بين الأفكار الّتي سادت لفترةٍ طويلةٍ من الزمن لدى الملاحدة ونشروها بين الناس: أنّ الكون وما فيه قد نتج بالصدفة والعشوائيّة (وهو تفكيرٌ متوقّعٌ بالطبع ممّن ينكر الخالق الحكيم العليم القدير)، وقد كانوا يتفنّنون في وضع تصوّراتهم الخياليّة حول ذٰلك، لٰكنّهم أُصيبوا بضربتين قويّتين:

الأولى: كانت الأدلّة الّتي رجّحت كفّة نظريّة (الانفجار الكبير) أخيرًا في مقابل نظريّة (الكون المستقرّ أو المستمرّ)؛ إذ نسب العلماء الظهور المفاجئ لأغلب شعب الحياة في وقتٍ قصيرٍ جدًّا إلى (الانفجار الكبير) .

والثانيــة : أتت مكمِّلةً لها، وهي الاكتشــافات المتتاليــة لدقّة القوانين والثوابــت الّتي قادت هٰــذا الانفجار إلى الكــون الّذي نعرفه الآن بنجومه وكواكبه وبنائه المحكــم، والأرض الّتي نعرفها وما فيها من كائناتٍ حيّةٍ بما فيها الإنسان، وهو الأمر الّذي حيّر علماء الفيزياء والفلك.

هٰذا الاتساع الدقيق جدًّا الّذي جرى في الكون منذ اللحظات الأولى وإلى الآن، يصفه أحد أشهر الملاحدة الفيزيائيّين معترفًا بهٰذه الدقّة، وهو ستيفن هوكينــج (Stephen William Hawking) في كتابــه "مختصر تاريخ الزمن" وهو يصف معدّل التمدّد الكونيّ: «إذا كان معــدّل التمدّد بعد ثانيةٍ واحدةٍ من الانفجار الكبــير أصغر بمقدار حتّى جزءٍ واحدٍ مــن مئة ألف مليون بليون، فالكون ســينهار ثانيةً على نفســه قبل أن يصل إلى حجمه الحاليّ».

]Stephen Hawking, A brief History of time, p.121.[125-

فإنّ هٰذا الاتســاع والتمدّد رغم أنّه من المفترَض أن يتباطأ بســبب تأثّره بالجاذبيّــة منذ لحظة الانفجــار، إلّا أنّه إلى اللحظة لا زال مســتمرًّا، وهو

ما جعلهم يفترضون وجود ما يُسـمّى بالطاقـة المظلمة الّتي تعمل على جذب الكون؛ ليتّسـع في اتّجاهٍ مضـادٍّ لاتّجاه انضغاطه على نفسـه بفعل الجاذبيّة [باحثون مسلمون، كتاب الإلحاد، ص 79].

3 ـ معضلة الشرّ عند الملحدين

وتُعرَف أيضًا بنظريّة المعانـاة أو الشرّ المجانيّ وغير المبرّر. فوجود الشرّ في الحيـاة البشريّة يتعارض مع الإرادة المطلَقة الّتي تتحايث مع الوجود الإلٰهيّ، وكذلك يتعارض مع الاعتقاد بأنّ الإلٰه قـادرٌ ومريدٌ وخيرٌ مُطلَق، الاعتقاد بذلك يفترض أن ينتهي إلى غياب الأشـكال القائمة من الشرّ، فالزلازل على سـبيل المثال، وما يترتّب عليها من كوارث، يدفع بعض البشر إلى الاعتقاد في عبثيّة الحياة، وغيـاب الحكمة في المنظومة الكونيّة، الّتي تتجلّى في بعض مظاهر الإلحاد عند الغرب.

ومـن أبرز الاحتمالات العقليّة الّتي سـيقت في هٰذا الإطار لتبرير وجود الشرّ غير المبرّر ما يلي:

أ ـ إمّا الخالق يجهل بوجود الشرّ (وذٰلك مرفوضٌ لتعارضه مع الكمال).

ب ـ وإمّا أنّه يعلم بالشرّ، ولٰكن لا يستطيع إيقافه (وهٰذا ضعفٌ ونقصٌ مرفوضٌ).

ج ـ وإمّا أنّه أصلًا شرّيرٌ، (والشرّ نقصٌ يتعارض مع الكمال).

د ـ وإمّا أنّه يسـمح بالـشرّ؛ لحكمة الابتلاء والامتحـان (وهٰذا الوحيد المقبول دينيًّا).

من جانبٍ آخر، فإنّ الحكماء الإسلاميّين قد حلّوا معضلة الشرّ باعتبار أنّ مفهوم الشرّ نفسه نسبيٌّ، ويفسّر بما يجلب العدم، فنحن نعتبر كلّ ما يسبّب الهلاك والموت شرًّا، بينما بعض ما نعتبره شرورًا، وهو يتمتّع بالوجود له باعتباراتٍ أخرى؛ نحو وجود خيرٍ كاستغلال السمّ في إنتاج الترياق. فالشرور لا توجد حقيقةً، بل هي عدمٌ، وهي قضيّةٌ اعتباريّةٌ، حيث سنجد هٰذه الحقيقة ماثلةً عند حكماء كثرٍ، مثل صدر المتألّهين الشيرازيّ في (الأسفار) و(الشواهد) وغيرها من الأعمال، كما نجدها عند تلامذته وأتباعه كالحكيم السبزواريّ في المنظومة وما شابه.

4ـ إشكاليّة العلاقة بين العلم والدين وتناقضات التراث الدينيّ

يحاول الملحدون أيضًا استثمار التطوّر العلميّ والاكتشافات الحديثة في الطبيعة والإنسان؛ لإبراز ما يرونه متناقضًا فيما جاءت به بعض الكتب السماويّة كالقرآن الكريم، وهو أمرٌ يمكن إرجاعه إلى قصور بعض الفقهاء والدعاة (في الإسلام) عن فهم بعض الآيات الّتي يقدّمونها كنوعٍ من الإعجاز العلميّ في القرآن، بالإضافة إلى هيمنة الإسرائيليّات المرتبطة بالخرافة والأسطورة (خاصّةً في المتون السنّيّة) أو ما يُسمّى بالتفسير بالمأثور عند القدماء.

كما يركّز دعاة الإلحاد عادةً على عددٍ من المتناقضات الّتي تحفل بها بعض النصوص المنقولة عن الأديان بما في ذٰلك الإسلام، فيقدّمون عادةً بعض الأدلّة الّتي تتوزّع بين تأويلاتٍ خاطئةٍ لبعض رجال الدين، أو منحرفةٍ عن سياق النصوص الأصليّة.

ونورد هنا أمثلةً لأسباب نزول عددٍ من الآيات القرآنيّة الّتي اختلف حولها فقهاء الإسلام، وكذا الكثير من الأحاديث الّتي جاءت في المتون السنّيّة، والّتي تناقض عادةً حتّى ما جاء في القرآن الكريم، كحدّ الردّة، وحدّ الرجم.

بالإضافة إلى تقديمهم لعددٍ مـــن الأخطاء الّتي وقع فيها الجيل الأوّل من الصحابة والتابعين وكرّسها الفقهاء فيما بعد، بواسطة اجتهاداتٍ حملت طابع الإلزام بفعل تدخّل الســـلطات التاريخيّة الّتي عرفت أيضًا تورّط الكثير من حكّام المسلمين في أخطاءٍ ومزالق شوّهت رسالة الإسلام، وعمل بعض فقهاء السلطان أيضًا على تبريرها بناءً على نصوصٍ وتأويلاتٍ فاسدةٍ.

ومـــن ذٰلك نذكر ارتباط العنف بالدين، بالرغـــم من أنّ الأديان تتّفق في جوهرها على نشر السلام والتســـامح من خلال دعوات كلّ الأنبياء، إلّا أنّ الأتبـــاع عادةً ما كانوا يخالفون هٰذا الطرح، بحيث إنّ معظم الحروب ووقائع الاضطهاد والإبادة الّتي عرفها التاريخ خاصّةً خلال العصور القديمة والوسطى كانت لأســـبابٍ دينيّةٍ، وما زال الكثير من الجمـــاعات الدينيّة المتطرّفة حول العالم تقضّ أمن الدول والمجموعات باســـم الانتصار لبعض الأيديولوجيات الدينيّة أو الطائفيّة المتزمّتة، ولعلّ داعش أقرب نموذجٍ يمكن اســـتحضاره في هٰذا المقام.

بعض المناهج المتّبعة في المناظرة لإقناع الملحدين وتوظيفها

1 ـ المنهج العقليّ

لا ريـــب في أنّ العقل وحده يعدّ آيـــةً في الإعجـــاز؛ بتكوينه وتفاعله العجيب مع ذاته ومحيطه، وإذا كان العقـــل خلال الفترة الحديثة قد توصّل إلى الكثـــير من الأجوبة العلميّة حول عددٍ من الظواهر الطبيعيّة ـ الّتي كان يعزو تفســـيرها قديمًا إلى الخرافة والأسطورة، مثل خسوف القمر الّذي كان يفسّره بنشاط بعض العفاريت المخيفة، الّتي كان على الإنسان طردها بالطرْق على أواني المطبـــخ لتهرب! ـ فإنّه من جانبٍ آخر قد أُغرق في فهم آليّات عمل

الكون دون أن يفكّر في مصدر هٰذا الكون نفسه، بل إنّ بعض العقول تمادت في إنكار خالقٍ لهٰذا الكون، وعزوا أمر تصميمه ونشوئه وتطوّره إلى الطبيعة نفسها، فيما سمّاه بعضهم بالتولّد الذاتيّ، سواءٌ كانوا من القدماء كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلا يَظُنُّونَ﴾[سورة الجاثية: 24]، أو من المُحدَثِين كما جاء في بعض الفلسفات والمذاهب الفكريّة والعلميّة الحديثة كالداروينيّة والوجوديّة؛ وهو ما يشكّل مغالطةً منطقيّةً كبيرةً يمكن شرحها بمثالٍ بسيطٍ:

لنأخذ سيارة من موديل فورد، بحيث إذا رآها شخصٌ أميٌّ لأوّل مرّةٍ، لا يدرك شيئًا في ميكانيكا السيّارات ومحرّكاتها، فسوف يخيّل إليه بأنّ هٰذا السيّد "فورد" إنّما هو إلٰهٌ داخل محرّك السيّارة يجعلها تسير أو تتوقّف حسب مزاجه، لٰكن إذا درس هندسة المحرّك وطريقة عمله، فسوف يدرك حتمًا بأنّ السيد فورد (Henry Ford) مصمِّم هٰذا المحرّك، فهو أوّلًا رجلٌ خارج السيّارة، وثانيًا هو من صنع المحرّك وفق قوانين فيزيائيّةٍ معيّنةٍ توصّل إليها بعد دراسةٍ معمّقةٍ وظّفها في النهاية لعمل السيّارة.

وهٰكذا فإنّ دعاة الإلحاد الجُدد ـ بيتر ويليام أتكينز (Peter William Atkins) وريتشارد دوكينز (Richard Dawkins) وغيرهما ـ قد جرى لهم مثل حال الرجل الأميّ وسيّارة فورد؛ إذ لم يفرّقوا بين الآليّة ومنشئها. وفي المقابل نجد إسحاق نيوتن (Isaac Newton) عندما اكتشف القانون العامّ للجاذبيّة لم ينكر وجود إلٰهٍ قد صمّم آليّة عمل الكواكب، بل على العكس من ذٰلك وجد نفسه أكثر إيمانًا بوجوده، وأكثر تقديسًا له بعد أن وقف على بعض أسرار خلقه.

وفي هٰـذا الإطار يذكر مايكل بول في مناظرته الشـهيرة مع ريتشـارد دوكينز ما يلي:

«لا يوجد تعارضٌ منطقيٌّ بين التفسـيرات الّتي يقدّمها المنطق للآليّات، وبين التفسـيرات الّتي تتعلّق بالخطط والغايات للفاعل، سواءٌ كان إنسانيًّا أو إلٰهيًّا، وهي مسـألةٌ منطقيّةٌ لا علاقة لها بموقف الشـخص من الإيمان بالله من عدمه» [حسن، أقوى براهين د. جون لينكس في تفنيد مغالطات منكري وجود الخالق، ص 75 و76].

في السياق نفسه، ووفق ما يُصطلح عليه بقانون السببيّة فإنّ لكلّ حادثٍ محدِثًا، وإذا كان الكون حادثًا فلا بـدّ له من مُحدِثٍ. فإذا كان الكون واجبَ الوجـودِ، ووجودُه ذاتيًّا، لا لعارضٍ منحه إياه، بل هو الّذي أعطى الممكنات وجودها، وإذا قلت فمن أوجد الله؟ فهٰذا يؤدّي إلى سلسـلةٍ من الآلهة خلق بعضها بعضًا إلى أن تصل إلى الله الموجود بذاته الّذي يصدر عنه الوجود، ولا يفتقر لغيره. [شيخاني، الله يتحدّى الملحدين، ص 8]

يقول ديـكارت (René Descartes): «أنا موجـودٌ، فمَن أوجدني؟ ومَن خلقـني؟ إنّني لم أخلق نفسي، فلا بدّ لي من خالـقٍ، وهٰذا الخالق لا بدّ أن يكـون (واجب الوجود)، وغير مفتقرٍ إلى مَن يُوجِدُه، أو يحفظ له وجوده، ولا بدّ أن يكون متّصفًا بكلّ صفات الكمال، وهٰذا الخالق هو الله بارئ كلّ شيءٍ» [الجسر، قصّة الإيمان، ص 109].

إنّ نظـام الخلـق البديع والمتناسـق لا بـدّ أن يكون مـن ورائه صانعٌ قويٌّ، بديعٌ، متعالٍ عن أيّ قوّةٍ أخرى توجد في الطبيعة. يقول أناكساغوراس (Anaxagoras): «مـن المحال أن تبـدع هٰذا الجمال وهٰـذا النظام اللذين

يتجلّيان في هٰذا العالم ؛ لأنّ القوّة العمياء لا تنتج إلّا الفوضى، فالّذي يحرّك المادّة هو عقلٌ رشيدٌ، بصيرٌ حكيمٌ» [المصدر السابق، ص 29].

وإذا حاول كانط في كتابه "نقد العقل النظريّ" تقويض الدليل الأنطولوجيّ، وبالتالي تقويض فكـــرة "الله" ـ حيث بدا أكثر تحفّظًا من يقينيّات النهضة، وأكثر رفضًا لرسوم فلسفات اللاهوت المسيحيّ ـ فإنّه سيعود ليثبت ذٰلك ـ في كتابه "نقد العقل العمليّ" ـ وفق ما يمكن أن نسمّيه بـ"الدليل الأخلاقيّ".

وإذا كان الدليل الأنطولوجيّ يثبت المطلـــق خارج الذات ومطلقاتها، فإنّ الدليـــل الأخلاقيّ القائم على الإرادة الحرّة المطلقة المتعالية ـ حســـب كانط ـ يجعل المطلق هو الذات، وفكرة "الله" متفرّعةً عنها أو صنيعةً لها، ليس على نحو الحقيقة، بل على نحو ما يمكننا اعتباره تجوّزًا؛ ضربًا من الوعي المتخيّل بالإلٰه، وعيًا يفرزه العقل العمليّ، ويؤيّده العقل النظريّ. [هاني، أخلاقنا، ص 51 و52]

من جهةٍ أخرى، فإنّ القول بأنّ الحياة تتولّد تلقائيًّا من الموادّ الجامدة، إمّا لعفونتها كتولّد الحشرات من القذارة، وإمّا لتركيب أجزاء الجســـم الحيّ على شكلٍ خاصٍّ كالأجهزة العلميّة، هو مجرّد احتمالٍ بلا دليلٍ.

ففي كتـــاب "الطبيعة وما بعد الطبيعة" ليوســـف كرم: «أثبت باســـتور (Louis Pasteur) بالتجربة القاطعـــة أنّ دودة العفونة وحشرة القذارة تتولّد من جراثيم حيّـــةٍ لا ينالها البصر المجـــرّد، وأنّ كلّ حيٍّ فهو من حيٍّ».[يوسف كرم، الطبيعة وما بعد الطبيعة، ص 46] وينقل العلاّمة مغنية في كتابه "شُـــبُهات الملحدين والإجابة عنها" عن كتاب "الله يتجلّى في عصر العلم" يقول رســـل تشـــارلز: «جميع الجهود الّتي بُذلت للحصول على المادّة الحيّة من غير الحيّ قد باءت بخذلانٍ وفشـــلٍ ذريعين». ممّا يؤكّد أنّ المـــادّة لا طاقة لها بتوليد القوّة الحيويّة. [مغنيّة، شُبُهات الملحدين والإجابة عنها، ص 51]

حاليًّا، هناك تطوّرٌ في مفهوم العقل نفســه؛ ممّــا يمكن توظيفه لردّ كلّ الأدلّة الّتي أقامها المنكرون على أسسٍ يمكن استعمال أدلّة النقض لدحضها. فأحكام العقل عامّةٌ ولا يمكن أن نســتعملها في دحض قضيّةٍ هنا والتسليم بقضيّةٍ هناك، وإلّا سقطنا في نوعٍ من السفسطة.

فلا شكّ بأنّ الحُجَجَ العقليّة الّتي يسوقها المنكرون تشكّك في الوجود من دون منح أيّ اعتبارٍ لأحكام القيمــة الّتي يقدّمونها، والّتي هي غير مكتملةٍ بدليل أنّ نقد العقل لا زال يتواصل مع الفلسفات الحديثة.

لٰكــن أيًّا كانت هٰذه الحجج فهي أيضًا غير قادرةٍ أن تثبت العكس، وهٰكذا يمكن مواجهة المنكرين بأدلّتهم نفسها، وهٰذا حتّى في الحدّ الأدنى سيجعل الأمر وســطًا، فتبدأ الحَيرة وضغط الحاجة الّتي يفرضها الفقر الوجوديّ كما في برهان الصدّيقين، وهو ما يؤكّد أنّ هٰذا الإحســاس بالفقر الوجوديّ يتعدّى العقل إلى الحدس والوجدان، ويجعل الحاجة إلى الخالق حاجةً وجوديّةً قبل كلّ شيءٍ.

2 ـ المنهج الحسّيّ والتجريبيّ

بدايةً نقول إنّ واضعي أسس العلم التجريبيّ نفسه كانوا مؤمنين بخالقٍ، ولم يروا هناك تعارضًا بين رصد الظواهر الطبيعيّة وســنن الكون وقوانينه، وبين وجود المقنّن نفسه الّذي اختار هٰذه السنن على ما هي عليه بكلّ حكمةٍ ودقّة ســبحانه (فالصنعة لا بدّ لها من صانعٍ)، ونخــصّ بالذكر منهم: جابر بن حيّانٍ، والخوارزميّ والــرازيّ، وابن الهيثم، وابن النفيس، وغيرهم ممّن أبهروا العالم في شــتّى المجالات مــن الطبّ والكيمياء والهندســة والفلك والتسيير الذاتيّ والميكانيكيّ.

وقد أخذ عنهم التجريبيّون الأوائل خلال عصر النهضة والأنوار بعد أن درسوا أفكارهم وأعمالهم، يقول الباحث روبرت بريفولت (Robert Briffault) في كتابه الشهير "صناعة الإنسانيّة":

«إنّ روجـــر بيكون (Roger Bacon) درس اللغة العربيّة والعلم التجريبيّ في مدرسة أكســـفورد على يد خلفاء معلّمي العرب والمســـلمين في إسبانيا، وليس لروجر بيكون، ولا لسَـــمِيِّه الّذي جاء بعده الحقّ في أن يُنسَب إليهما الفضـــل في ابتكار المنهج التجريبيّ» [حسن، أقوى براهين د. جون لينكس في تفنيد مغالطات منكري وجود الخالق، ص 81].

من جهةٍ أخرى يبقى العلم التجريبيّ عاجزًا عن رصد الكثير من الأشياء (المفترضـــة) في العلـــم، والّتي لم يجرّبهـــا أو يرصدها أحدٌ، وإنّما اســـتدلّ عليها العلماء بآثارها، مثل جســـيمات القوى الأربـــع (القويّة والضعيفة والكهرومغناطيســـيّة والجاذبيّة) أو ما يستجدّ منها، والمادّة السوداء والطاقة المظلمة (ســـواءٌ صحّت أم لا) والأوتـــار الفائقة، ولا التناظـــر الفائق ولا الأكوان المتعدّدة... إلخ.

فتطوّر مفهوم المادّة فيزيائيًّا أدّى إلى تهافت الحجج الّتي ساقها المنكرون خلال القرن الثامن عشر والتاســـع عشر الميلاديّـــين؛ ليفتح المجال أمام تصـــوّراتٍ تدحض كلّ الحجـــج القديمة للمنكرين، لا ســـيّما أمام حقيقة امتـــداد العالم غير المحسّ والمـــرئيّ، وحتّى غير القابـــل للقياس، وبروز فيزياء الكوانتوم، وقبل ذٰلك النســـبيّة الّتي أعادت الســـؤال حول مفهوم المـــادّة والحركة والزمن. يقول عالم الفيزياء الألمانيّ الشـــهير ماكس بلانك (Max Planck) أحـــد الفائزين بجائزة نوبـــل في الفيزياء عام 1918، ومن

مؤسّـــسي نظريّة الكمّ في كتابه "إلى أين يذهـــب العلم": «العلم الطبيعيّ لا يســـتطيع حلّ اللغز المُطلق للطبيعة؛ وذٰلك لأنّه في التحليل الأخير نكون نحن أنفســـنا جزءًا مِن الطبيعة، وبالتالي جزءًا من اللغز الّذي نحاول حلّه» [باحثون مسلمون، كتاب الإلحاد، ص 75].

وهٰكذا بدأت حجـــج المنكرين تواجه حقائق العلـــم الجديد، وهو أمرٌ يمكن توظيفه أيضًا لبيان تخلّف حجج الملحدين. فمفهوم المادّة اليوم تكتنفه أسرارٌ فيزيائيّـــةٌ، تقترب به من مفهوم الغيب الّذي لا نكاد نتعرّف عليه إلّا من خلال آثارٍ طبيعيّةٍ تؤكّد وجود أشياء غير مرئيّةٍ إلّا من آثارها.

ومن أدلّة قصور العلم التجريبيّ أيضًا عدم امتلاكه الأدوات الّتي يصف بها ويستشعر بها الجمال، سواءٌ الجمال الّذي نجده في قصّةٍ أو روايةٍ أو تجسيمٍ أو حتّى لوحةٍ أو رسمةٍ صغيرةٍ!

تصوّر أنّنا وضعنا بـــين يديك مجموعةً من القصاصـــات الورقيّة مختلفة الألوان والأشكال والمســـاحات، وأنّنا أعطينا نفس هٰذه المجموعة إلى طفلٍ رضيـــعٍ في عمر العام، ثمّ شرع كلٌّ منكما في عمل تشـــكيلٍ بها أمامه، فأمّا نتيجتك فكانت لوحةً رائعة الجمال متناســـقة الخطوط والألوان والمساحات، وأمّا نتيجة الطفل الرضيع فكانت تداخلاتٍ عشـــوائيّةً غير ذات تنسيقٍ أو معنًى محدّدٍ.

والسؤال: إذا كان أيّ إنسان يستطيع معرفة الفرق بين نتيجة التجربتين من جمالٍ وقبحٍ واستشـــعاره، فهل يستطيع العلم التجريبيّ ترجمة ذٰلك؟ وهل يستطيع وضع مقياسٍ لدرجة الجمال؟

إنّ بداخل كلٍّ منّا (أنا) ذاتيّةً تستشعر الأشياء، وتعطيها انطباعاتٍ لا يمكن رصدها ولا تمثيلها بالعلم التجريبيّ. إنّها شيءٌ خارج نطاق القياس الّذي يظنّ المادّيّون أنّهم يخرجون به من المخّ أو الدماغ، والوصف الكيميائيّ أو الفيزيائيّ أو الكهربيّ لما يجري فيه استجابةٍ لبعض الأشياء؛ إنّها (انفعالٌ) خاصٌّ يعرفه كلّ واحدٍ، حتّى ولو لم يجد العبارات المناسبة لوصفه!

وإنّ من أبرز أوجه القصور في العلم التجريبيّ أو المنهج التجريبيّ ـ الّذي يزعم الملحدون أنّه (الطريق الوحيد) لإدراك كلّ شيءٍ في الوجود والكون ومعرفته ـ ما يسمّى بـ "مشكلة الوعي الصعبة" The hard problem of consciousness، فرغم ما يحاول الملاحدة وأصحاب المنهج المادّيّ تقديمه لم يستطيعوا تفسير الكثير من الأشياء الّتي لا تخضع لأدوات العلم التجريبيّ؛ كمحاولتهم مثلًا تفسير التفكير بأنّه عمليّاتٌ كيميائيّةٌ وفيزيائيّةٌ وكهربيّةٌ في المخّ فقط.

فمثلًا، نريد من الحاسوب إجراء رسمةٍ معيّنةٍ بأحد برامج الرسم، وبالفعل يصمّم المبرمج هٰذا البرنامج، ثمّ يبدع هو أو غيره من المستخدمين فيه؛ ليخرج لنا بلوحةٍ خلّابةٍ ومعبّرةٍ، والسؤال: هل هناك أيّ عاقلٍ يقول: إنّ الّذي أبدع اللوحة هو (التفاعلات) الكهربيّة والكيميائيّة والفيزيائيّة الّتي جرت داخل أسلاك الحاسوب، أو الهاتف المحمول؟

بالطبع هٰذا لن يوصف بالعقل أبدًا!

يقول الباحث دانيال بور (Daniel Bor) واصفًا مدى معضلة هٰذه النتيجة على العلم التجريبيّ والمنهج المادّيّ: «هناك الكثير من المشاكل الصعبة في العالم، ولٰكنّ هناك مشكلةً واحدةً فقط تستحقّ أن تسمّي نفسها بـ "المشكلة الصعبة". تلك المشكلة هي مشكلة الوعي الصعبة؛

كيف لـ (1300 جرام) من الخلايا العصبيّة أن تســتحضر ذٰلك الخليط من الأحاســيس والأفكار، والذكريات والمشاعر الّتي تشــغلنا في كلّ لحظةٍ من لحظات يقظتنا... المشكلة الصعبة لا تزال بدون حلٍّ» [باحثون مسلمون، كتاب الإلحاد، ص 60 و61 com.res-muslims.www].

وينــدرج في هٰذا الإطار موضوع التفكير في المســتقبل، ومعه الخيا ل أو التخيّل للأشــياء الّتي لم تقع لنســأل: هل يخضع ذٰلــك منطقيًّا للعلم التجريبيّ والمادّيّ؟

فعندمــا يتحدّث الملاحــدة والمادّيّــون عن التفكير والــوعي والعقل، ويصوّرونها على أنّها لا تتعدّى النشاط (المادّيّ) الناتج من تفاعل الذرّات في الحدود الزمكانيّة الخاصّة بها، ثمّ نجد شــيئًا بسيطًا جدًّا يفعله كلٌّ منّا (حتّى أصغر طفلٍ) وهو القدرة على (تخيّل مــا ليس موجودًا)؛ إذ لدينا القدرة على تخيّل ملايين الأشــياء غير الموجودة على أرض الواقــع، أو غير المرصودة على أرض الواقع، أو حتّى لم يعاينها أحدٌ بحواسّه!

موقفٌ واحدٌ من مثل هٰذه المواقف كان كفيلًا بإعادة شــخصٍ مادّيٍّ إلى الإيمــان بالغيبيّات وما وراء الطبيعة مرّةً أخــرى، وهو ما وقع مع الدكتور مصطفى محمود، وكما يحكي في هٰذا مقطع فيديو من برنامجه الشــهير (العلم والإيمان) وقصّتــه العجيبة مع رؤيا مناميّةٍ وقعت له، وكانت من أســباب إفاقته من وهم (الإلحاد والماديّة).

https//:www.youtube.com/watch?v=m2oFo4A4dRA.

نتائج وخلاصاتٌ

لا ريب أنّ ظاهرة الإلحاد قد أصبحت مؤخَّرًا الهاجسَ الأكبر لدى المتديّنين خاصّة داخل المجتمعات العربيّة الإسلاميّة الّتي تأثّرت كثيرًا بالفلسفات الغربيّة من جهة، ومن تنامي موجات التطرُّف والإرهاب التكفيري المرتبط أساسًا بالأيديولوجيا السلفيّة الوهابيّة من جهةٍ أخرى.

يمكن تقسيم الملحدين إلى نوعين؛ المنكرون لوجود الله الخالق، واللاأدريون الذين لا يكترثون للقضايا الدينيّة الغيبيّة، ولا يعنيهم كلّ هٰذا الجدل الدائر حول الله والأديان.

يستعرض الملحدون عادة الكثير من الشبهات ؛كالعزف على وتر الصُّدفة في الخلق،وإنكار الإيمان بالغيب،وطرح معضلة الشرِّ الّتي تشكّك في قدرة الله ورحمته بعباده، بالإضافة إلى تقديم الكثير من التناقضات الّتي تعجّ بها مختلف الأديان على مستوى النصوص من جهة،وبين النصوص وممارسات المتديّنين من جهة أخرى، والتي تعكس عادة هيمنة العنف الديني لفترات من التاريخ القديم والحديث، بل المعاصر الّذي ارتبط أساسًا بالجماعات التكفيريّة الّتي شوّهت صورة الإسلام شرقًا وغربًا ؛ لضرب الأطروحات الدينيّة الّتي ترتبط عادة بأفهام البشر، ولا تعبِّر بالضرورة عن جوهر الأديان الّتي تدعو إلى السلم والسلام.

تقتضي مناظرة الملحدين الاستعداد الفكري والعلمي،إلى جانب المرونة والتحلّي بالأخلاق الحسنة، مع تجنّب الاستفزاز والحذر المنهجي في مناقشة الأفكار والمواقف المقدَّمة، دون التعالي على الخصم، كما يُستَحسن التأسيس للحوار بالوقوف على أرضيّة عقلانيّة مشتركة بين الطرفين، باستخدام المنهج الفلسفي العقلي خصوصًا.

وبذٰلك فـــإنّ مواجهة ظاهرة الإلحـــاد تقتضي الوعيَ بـــكلّ المقتضيات الســـابقة، مع الاطّلاع كفايةً على الشـــبهات الّتي لا يتوقّف الملحدون عن طرحها، بتحليلها وفهمها؛ تمهيدًا لإعداد الردود المناسبة الكفيلة بدحضها، مع الارتكاز أساسًـــا على المنهج العقليّ والمنطق الّذي يســـتند إليه ـ عادةً ـ الملحدون للتشـــكيك في عقائد المؤمنين. وفي هٰـــذا الإطار لا بدّ من تحقيق التراث الدينيّ المُفعَم بالتناقضات الّتي كرّستها بعض التأويلات والاجتهادات المنحرفة أو المتطرّفة لرجال الديـــن، بالإضافة إلى عددٍ من المتون الموضوعة في ســـياقاتٍ مختلفةٍ داخل تاريخ تطوّر الأديان، دون إغفال ممارسات بعض المتديّنين الّتي لا تعبّر بالضرورة عن جوهر الأديان وغاياتها السامية.

ويبقى المنهج والدليل العقليّ هو العمدة في المقام؛ لأنّه في المناظرة لا بدّ من الوقوف على قاعدةٍ مشـــتركةٍ، وتكون أحكام العقل وقواعده العامّة مشتركةً بين المتناظرين، ومثل ذٰلك في ردّ شبهة المنكرين خاصّةً بخصوص الصدفة، حيث يعتبرها ابن سينا غير قابلةٍ للتكرار أكثريًّا ودائمًا. وسيكون من الخطإ الاســـتدلال بقواعد وأصولٍ لا يؤمن بها الطرف الآخر، ومن هنا فإنّ شرط قيام مناظرةٍ حقيقيّةٍ هو وجود هٰذه القاعدة المشتركة، وهٰذه القاعدة المشتركة هي جملة الأحكام والقواعد العقليّة العامّة الّتي يشـــترك في القبول بحجّيّتها العقلاء، يعضده في ذٰلـــك المنهج التجريبيّ الحسّيّ (العلـــميّ) الّذي يرتبط أساسًا بما قدّمته العلوم التجريبيّة للإنسان، أو ما توقّفت عنده ممّا لم يصل بعد إلى إدراكات العقل البشريّ.

قائمة المصادر

1. ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى، 1400 هـ.
2. الألمعي، زاهر عواض، مناهج الجدل في القرآن الكريم، دار الكتاب العربي، لبنان، الطبعة الرابعة، 1404 هـ.
3. باحثون مسلمون، كتاب الإلحاد (مجموعة مقالات) www.muslims_res.com
4. جريشة، علي، أدب الحوار والمناظرة، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، مصر ـ المنصورة، الطبعة الأولى، 1410 هـ ـ 1989 م.
5. الجسر، نديم، قصة الإيمان، دار الكتب العلمية، لبنان، 2008 م.
6. حسن، أحمد، أقوى براهين د. جون لينكس في تفنيد مغالطات منكري الدين، الدار العربية للطبعة والنشر، الرياض، الطبعة الأولى، 1437 هـ.
7. د.صابر عبد الرحمن طعيمة، الإلحاد الديني في مجتمعات المسلمين، دار الجيل ـ بيروت، الطبعة الأولى 2004 م .
8. الراغب الأصفهاني، الحسين بن محمد، المفردات في غريب القرآن، مكتبة نزار مصطفى الباز.
9. الزبيدي، محمد بن محمد، تاج العروس من جواهر القاموس، الكويت، الطبعة الثانية، 2008 م.
10. زكي نجيب محمود و...، قصة الفلسفة، مؤسسة هنداوي سي آي سي، المملكة المتحدة، 2018 م.
11. سلامي، عبد اللطيف، المدخل إلى فن المناظرة، دار بلومزبري، قطر، الطبعة الأولى، 2014 م.
12. شيخاني، محمد، الله يتحدى الملحدين، دار قتيبة، بيروت، الطبعة الأولى،

2001 م.

13. الشيخلي، عبد القادر، أخلاقيات الحوار، دار الشروق، مصر، الطبعة الأولى، 1993 م.

14. الصفار، حسن، الحوار والانفتاح على الآخر، مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي، بيروت ـ لبنان، الطبعة الرابعة، 1433 هـ ـ 2012 م.

15. محروس، صالح، خرافة الإلحاد، دار الإمام الرازي، القاهرة ـ 2018 م.

16. مغنية، محمدجواد، شبهات الملحدين والإجابة عنها، دار الجواد، بيروت ـ لبنان، 1986 م.

17. المناوي، عبد الرؤوف، التوقيف على مهمات التعاريف، تحقيق عبد الحميد صاح حمدان، عالم الكتب، القاهرة، الطبعة الأولى، 1990 م.

18. نايت، ذاكر، ديدات الأكبر، ترجمة أحمد سامح شعبان، طبعة الثانية، دار سما للنشر والتوزيع، الكويت.

19. هاني، إدريس، أخلاقنا (في الحاجة إلى فلسفة أخلاق بديلة)، سلسلة الدراسات الحضارية الصادرة عن مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي، العدد (35).

20. Stephen Hawking, A brief History of time, Bantame press, london:1988